الفصل التاسع

المبادى الأساسية التى قـــام عليها التعليم فى عهـد الرســـول

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ولم يكن خير من الرسول معلما لاخيار الصحابة والمؤمنين فبلغهم رسالته وألزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه وعلمهم الحكمـة والحلال والحرام ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر والبغى وبشرهم بخير الثواب لمن اطاعه وانذرهم بالعقاب لمن عصى الله وكفر بقرآنه ، وهـذه هى الرسالة المحمدية رسالة تعليم البشر وهو أمر من الله تعالى فى قوله :

« هو الذى بعث فى الأميين رســولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (١) ٠

قال صلى الله عليه وسلم : (انما بعثت معلما) ٠ والرســول الكريم تنفيذا لامر الله لم يدخر جهدا ولم يضيع وقتا ولم يترك وسيلة الا ودعا بهـا الى الله سبحانه وتعالى ، وعلم العــرب شريعة الله ووجههم بحكمته فى كل أمر من أمور حياتهم الدنيا والآخرة ٠

وهذا ينفى قول الامام محمد عبده فى مقالته « رسالة التوحيد » « ليس فى وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ومعلمى الصناعات » وأغفل الشـيخ محمد عبده رحمه الله ان المعلمين والعلماء هم ورثة الأنبياء فى تادية الرسالة ٠

ولما كان الرسول معلما فقد سار على مبادىء عامة فى التعليم أوحى بهـا الله له فى كتابه الكريم ٠ ومن هذه المبادىء ما يلى :

أولا : عمومية الدعـوة والتعليم :

أن العملية التعليمية لا تحدث فى فراغ بل تحـدث فى مجتمع تتأثر به وتؤثر فيه من أجل بناء حياة افضل أو اعادة البناء الاجتماعى بصورة أمثل ٠ ولما كانت العملية التعليمية مشروطة بشروط الزمان والمكان فان الظروف التى وجد عليها المجتمع الجاهلى فى فجر الاسلام حتمت وضع قواعد جديدة للتعليم

---

(١) سورة الجمعـة آية ٢ ٠

تجمع الناس كافة فى اطار واحد هو اطار الوحدة والحضارة ، فالاسلام دعوة من الله الى الناس عامة وبعث به الرسول من أجل الناس كافة • قال تعالى :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (١) •

فالدين دين الناس جميعا صغيرا وكبيرا غنيا وفقيرا عربيا واعجميا ، رجلا وامرأة ، أبيض وأسود ، فساوى الاسلام بين البشر فى الحق فى التعليم واتاح الفرص للجميع للحصول عليه • وقال عليه الصلاة والسلام :

« العلم فريضة على كل مسلم ، فتقضى مبدأ عمومية التعليم على الطبقية الاجتماعية والتفرقة العنصرية والتباهى بالانساب وغيرها من مشاكل المجتمع العربى فى الجاهلية • ففى فرائض الاسلام وخاصة الصلاة والحج يلتقى جميع المسلمين امام الله سواء •

وقد اتاح مبدأ العمومية تحقيق مبدأ المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم وقد ضرب الرسول عليه الصلاة والسلام أروع مثل فى حرصه على تعليم **المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجته حفصة بنت عمر بن الخطاب فقد روى** البلازرى فى كتابه فتوح البلدان أن الشفاء العدوية وهى سيدة من بنى عدى كانت كاتبة فى الجاهلية وكانت تعلم النتيات الكتابة والخط وان حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول ولما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب من « الشفاء العدوية » ان تتابع تثقيفها وتعليمها وروى الواقدى « ان عائشة وأم سلمة زوجتى الرسول صلى الله عليه وسلم قد تعلمتا القراءة والكتابة •

وقد تذكر كتب التاريخ ان فرص التعليم والثقافة كانت متاحة للجوارى أنفسهن فى أوسع نطاق وان هذه الفرص قد أتت ثمراتها الطيبة فنبغ فى ميدان العلم آلافا من الجوارى المبرزات فى علوم القرآن والفقه وشتى أنواع المعارف• ومن هذا يتضح ان الاسلام لم يكن السبب فى الجهل الذى كان متفشيا بين النساء المسلمات فى القرون الماضية وانما كان السبب انحراف المسئولين عما سنه الاسلام من تشريعات وما وصفه الرسول من مبادىء **تربوية فى شئون التعليم** • واذا كان المصلحون فى الاجيال السابقة أمثال رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين وغيرهم قد دعوا الى تعليم البنات فانهم لم يأتوا ببدعة أو لم

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨ •

يكن لهم الفضل فى اعطاء هذا الحق الذى نالته الفتاة وانما هم أحيوا سنة صالحة سنها الرسول عليه الصلاة والسلام وأخذ بها المجتمع فى عهده وفى عهد الخلفاء والامراء من بعده ٠

وقد اتاح مبدأ عمومية التعليم أيضا الفرصة أمام الكثيرين من الفقراء والارقاء ممن نبغوا فى العلم فى عهد الرسول أمثال خباب بن الأرت ، وبلال بن رباح مؤذن الرسول وعبد الله بن مسعود وغيرهم كثيرين ٠ وعبد الله بن مسعود كان غلاما فقيرا يرعى غنما لعقبة بن أبى معيط ولكنه كان يلازم النبى صلى الله عليه وسلم منذ اسلامه ليأخذ عنه أحكام الدين ويتعلم منه ما علمه الله تعالى ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يعجبه منه هذا الحرص على العلم حتى قال له : « انك لغلام معلم » وكفى بهذه شهادة له ٠ وقد أرسله عمر بن الخطاب فى خلافته الى الكوفة ليعلم أهلها فكان له بها مدرسة عرفت فيما بعد بمدرسة أهل الرأى ، وبهذا يكون لعبد الله بن مسعود كل الفضل على أصحاب مدرسة أهل الرأى التى انتقلت بعده الى أبى حنيفة النعمان أمام أهل الرأى من فقهاء الاسلام ٠

ولما كان كثير من الشباب الداخلين فى الاسلام ليس لهم مال ينفقون منه وكانوا قد قطعوا ما بينهم وبين أهليهم فى بداية الدعوة فكان النبى صلى الله عليه وسلم يضم الفقير منهم الى الغنى كما ضم خباب بن الارت ــ وكان رقيقا قبل اسلامه ــ الى سعيد بن زيد وهو من بنى عدى بن كعب من أقوى بطون قريش وهو زوج فاطمة أخت عمر بن الخطاب ٠

قال تعالى :

« وآتوهم من مال الله الذى اتاكم » (١) ٠

ولما كانت الدعوة الى الاسلام عامة للكبار والصغار فقد تعلم فى عهد الرسول كثير من الصبيان بعد ان اعلنوا اسلامهم ومن هؤلاء على ابن أبى طالب وعبد الله بن عباس وغيرهم كثيرين ٠

وهكذا كانت الدعوة للعلم والتعليم الاسلامى دعوة عامة لجميع الناس

---

(١) سورة النور آية ٣٣ ٠

الكبير منهم والصغير الغنى والفقير ، العبد والحر ، الرجل والمرأة ، العربى والاعجمى ، الابيض والاسود من البشر دون تفرقة بين أحد منهم فى مجالس العلم ولم يرتفع احد منهم على الآخر الا بالعلم والتقوى ٠

قال تعالى :

« انما خلقنا الجن والانس ليعبدون » ٠

« قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » (١) ٠

« واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين » (٢) ٠

« يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » (٣) (اى سلطان العلم) ٠

وأراد الله بعموم الدعوة وتعليم الناس كافة تحقيق ما يلى :

١ ـ اتاحة الفرصة امام كل بنى آدم ليحظوا برحمة الله وهداه ، والرحمة وعد من الله لآدم وبنيه منذ أخرجه الشيطان من الجنة ، والله خير من يفى بوعده ، فأنزل القرآن للناس كافة يتعلمونه ويتدبرونه ليكون رحمة وهدى للمتقين ٠

« قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٤) ٠

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٥) ٠

٢ ـ اتاحة الفرصة أمام كل فرد لكى يتلقى قدر من العلم يمكنه من عبادة الله والتقرب اليه ٠

---

(١) سورة الجن آية ١ ، ٢ ٠
(٢) سورة الاحقاف آية ٢٩ ٠
(٣) سورة الرحمن آية ٣٣ ٠
(٤) سورة البقرة آية ٣٨ ٠
(٥) سورة البقرة آية ٢ ٠

قال تعالى :

« انما خلقنا الجن والانس ليعبدون » ٠

ومن ازداد علما ازداد قربا من الله ومن ازداد قربا من الله ازداد زهدا فى الدنيا الفانية العاجلة ورغب فى الآخـــرة الباقية الآجلة ، ومن رغب فى الآخرة فانه يعمل عملا صالحا فى الحياة الدنيا ، ومن عمل صالحا كان جزاءه الجنة والخلد فى الدنيا والآخرة ٠

قال تعالى :

« وما الدنيا الا متاع الغرور » ٠

« ومن عمـل صالحا فلنفســـه ومن اســاء فعليها ثم الى ربكم ترجعون » (١) ٠

٣ ـ ان عمومية التعليم وتوحيد منهج الدين للناس كافة يحقق التآلف بـين قلوبهم ويشفى نفوسهم من الحقد والكره والبغضاء فيما بينهم ، وتصحح فى عقولهم الذى هم اختلفوا فيه ٠ فالوحدة الثقافية والدينية هى خـير ما يحقق الاخاء والتآلف والمساواة بين البشر ٠

قال تعالى :

« هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم أنه عزيز حكيم » (٢) ٠

وما ألف الله بين العرب جميعا الا بالقرآن والعلم القرآنى :

ثانيا : عالمية الدعـوة والتعليم :

لقد سبق أن ذكرنا ان العالم هو أحد الابعاد السبعة فى العملية التربوية وهو أيضا هدف الدعوة الاسلامية واذا كانت الرسالة السماوية قد نزلت على **محمد صلى الله عليه وسلم** بلسان قومه فان ذلك ليسهل عليه تبليغ الرسالة

---

(١) سورة الجاثية آية ١٥ ٠
(٢) سورة الانفال آية ٦٢ ، ٦٣ ٠٠

ويكون شهيدا عليهم ويكونوا هم شهداء (١) على الناس وليكن منهم أمة يدعون الناس الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (٢) ٠

فالدعوة الاسلامية ليست عامة فحسب بل دعوة للعالم أجمع ٠

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (٣) ٠

فدين الاسلام هو دين الانسانية جمعاء لان تعدد الأديان فيه خطر وضلال على البشرية وهو بغى من الناس ٠ وجاء الدين الاسلامى ليظهره الله على سائر الاديان السابقة لانه جاء متمما لها ٠

قال تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ٠٠٠(٤) واذا كان الرسل من قبل محمد يرسلون الى قومهم خاصة فان محمدا قد أرسل الى الناس كافة ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ٠ فأنا ذاك اللبنة وأنا خاتم النبيين » ٠

فبعد ان بلغ النبى الرسالة الى قومه رغم ما لاقاه من الوان العذاب والاضطهاد هو وأصحابه وبعد ان هاجر الى المدينة لتكون الدعوة أكثر أمنا وانتشارا واستقرارا ٠ وأصبح عدد المعلمين فى المدينة يزيد على عشرين ألف رجل وامرأة وبعد أن أصبح المسلمون قوة وللدولة الاسلامية فى المدينة جيش قوى من عشرة آلاف مجاهد وصفه عروة بن مسعود الثقفى بقوله :

« انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه » ٠ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج بالدعوة من القومية الى الاقليمية فالعالمية ، فوجه نظره خارج بلاد الحجاز وأرجأ دخول مكة الى ما بعد انتهاء صلح

---

(١) أنظر سورة البقرة آية ١٤٣ ٠
(٢) أنظر سورة آل عمران آية ١٠٤ ٠
(٣) سورة الفرقان آية ١ ٠
(٤) سورة الفتح آية ٢٨ ٠

الحديبية • فأوفد فى سنة ٦ هـ مبعوثيه ورسله الى امراء العـــرب والملوك المعاصرين له فى دول العالم المجاورة كما سبق ان ذكرنا فآمن منهم أمـير البحرين ، وأمير عمان فى ٨ هـ وأمراء اليمن فى صنعاء وجند وهمدان وغـيرها ، ونجاشى الحبشة ، وهرقل الروم ومقوقس مصر • اما من رفض الدعـورة ورد الرسل هم صاحب دمشق وكسرى فارس وصاحب بصرى • وهذه الرســل التى بعثها الرسول عليه الصلاة والســـلام بكتب تدعو الملوك والامراء الى الدعوة الاسلامية هو حرص منه على تحقيق ماأمـره الله به بالتبشـير بالرسالة السماوية الى العالم أجمع واستطاع الرسول عليه الصلاة والسـلام بسياسته هذه التى اتبعها ان يمهد السبيل لتوحيد الاقليم العربى سـياسيا ودينيا وثقافيا واتساع رقعة الدولة الاسلامية •

وفى العام الثامن من الهجرة تمكن من فتح مكة وعين عليها عتاب بن اسيد واليا • وترك بها معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعرى ليعلما الناس القـرآن ويفقهاهم فى الدين ثم اقبلت وفود القبـائل المجاورة لمكة من هوازن وثقيف والطائف وغيرها بقبول الاسلام وتعلم الشرائع بعد ان اقنعهم الرسول بان الدخول فى الدين الاسلامى يستلزم اتباع أحكامه وقد وقع اختياره على عثمان بن أبى العاص الثقفى ليكون أميرا على ثقيف مع أنه احدثهم سنا لما رأى حرصه على التفقه فى الاسلام وتعلم القرآن • وفى العام التاسع للهجرة اقبلت الوفود من كل مدينة فى جهات جزيرة العرب تعلن خضوعها على الدخـول فى الاسلام وكان الرسول يكرم وفادتهم ويعلمهم شرائع الاسلام وكانت هـذه الوفود يمثلون فى أغلب الاحيان قبائلهم فى التعبير عن رغبتهم الصـــادقة فى اعتناق الاسلام والدخول فى طاعة الرســـول • فاذا ما عادوا الى مواطنهم نشروا الدعوة الاسلامية بين أهاليهم وقاموا بتعليمهم فرائض الاسلام وأحكامه وكان بعض هذه الوفود يعودون حاملين كتبا من الرسول مبينا بها ما يفرضه عليهم الاسلام من واجبات ، وعرف هذا العام بعام الوفود • وبذلك تحققت رغبة الرسول فى قوله تعالى :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (١) •

---

(١) سورة التـوبة آية ١٢٢ •

وفى العام العاشر للهجرة أخذت باقى الوفود العربية من قبائل اليمن تسير من أنحاء جزيرة العرب المختلفة قاصدة المدينة ليعلنوا للرسول اسلامهم وولائهم له ٠

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ان انتشر الاسلام فى بلاد اليمن أن يوفد الى أهالى تلك البلاد أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل ليعلماهم أمور دينهم ٠ وأوصاهما بقوله : « يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا » ٠

ولما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم فى ١٢ ربيع الأول سنة احدى عشر هجرية كانت كل قرية وكل مدينة دخلت الاسلام اقيم بها مسجد يتعلم فيه الرجال والنساء علوم القرآن والفقه والقراءة والكتابة قال ابن حزم ٠

« مات رسول الله والاسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم مارا الى سواحل اليمن كلها إلى بحر فارس الى منقطعه مارا الى الفرات منقطع الشام الى بحر القلزم ، وفى هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده الا الله كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طى وربيبة وقضاعة والطائف ومكة ، كلهم قد اسلموا وبنوا المساجد ، وليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لاعراب الا قرىء فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب » ٠

وهكذا انفردت الدعوة الاسلامية والتعليم القرآنى بمبدأين هامين هما **العمومية والعالمية** ، اذ كانت الرسالة المحمدية غير محدودة بعصر ولا جيل وغير محدودة بمكان ولا بأمة ولا بشعب ولا بطبقة ٠

انها الرسالة الشاملة التى تخاطب كل الأمم وكل الاجناس وكل الشعوب وكل الطبقات وليس فهمها ولا تفسيرها ولا الدعوه اليها حكرا على طبقه خاصة كما كان يتوهم كثير من الناس ٠ انها هداية رب العالمين للانس والجن أجمعين ٠ وقد زعم بعض المستشرقين أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يظن فى اول امره أنه مبعوث الى الناس كافة وانما فعل ذلك بعدما اتيح له الانتصار على قومه من العرب ٠

ولكن الآيات القرآنية ترد عليهم سوء فهمهم فما جاء فى الكتاب الكريم فى قوله تعالى : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (١) « ان هو الا ذكر للعالمين » (٢) ٠

---

(١) سورة الانبيا آية ١٠٦ ٠

(٢) سورة الانعام آية ٩٠ ٠

« تبارك الذى انزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (١)

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (٢)

كلها سور مكية ومن أوائل مانزل بها القرآن بمكة وهى تقابل من قريش بالجحود والنكران وبلغ الرسول عليه الصلاة والسلام آياته هذه قبل أن ينشىء حكومته فى المدينة فالدعوة الى الاسلام عامة وعالمية لانها قانون الله لايعرفله وطنا ولا قوما ولا لغة ولا مناخا ولا اقليما .

وهل هو كثير على الله وهو مالك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير أن يكون الاسلام هو دين الناس كافة أن أقوال المستشرقين بانكار محمد صلوات الله عليه أنه مبعوث للناس جميعا فيه كفر وجهل بالدين الاسلامى ، وصدق الله العزيز الحكيم فى قوله تعالى :

« يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متمم نوره ولو كره الكافرون » (٣) .

ان مبدأ العالمية فى الدعوة والتعليم الاسلامى يعد من أهم الابعاد التعليمية فى النظرية التربوية التى اوحى بها الله لرسوله منذ أربعة عشر قرنا . والبعد العالمى فى التربية هو أحد الابعاد التربوية السبعة الذى دعا اليه فى القرن العشرين علماء التربية الامريكيين فى كتاب الابعاد الدولية للتربية الذى الفه « ليونارد . سى . كنوبرذى » وقدمه الى المؤتمر الدولى الذى عقد فى اسيلومار والذى أعد فى كاليفورنيا فى مارس عام ١٩٧٠ . ففى العهد الحديث شعر العلماء المسيحيين الامريكيين بأهمية تربية الأطفال والشباب تربية عالمية تحقق تنمية الولاء للعالم الكبير وليس للوطن الصغير فقط . وفى كتاب « الابعاد الدولية للتربية » يبحث العالم الامريكى عن منهج تعليمى يحقق هذه العالمية ، ويبحث عن رمزيات مشتركة للمجتمع الدولى كما هو الشأن فى المجتمع الوطنى فيقول : « كل أمة من الأمم لها علمها الوطنى ونشيدها الوطنى وابطالها الوطنيين واعيادها الوطنية واماكنها التاريخية القومية وهذه

---

(١) سورة الفرقان آية ١ .
(٢) سورة الاعراف آية ١٥٨ .
(٣) سورة الصف آية ٨ .

الأشياء لها أهميتها لابناء الامة ، أنها علامات ظاهرية لشعور داخلى وهى تمثل الولاء للوطن وتبعث على الولاء له وهى من المرغوب فيه فى حلق الولاء عند الأطفال والشباب اذا ما أحسن استخدامها • ثم يتساءل : هل اقمنا رموزا مشابهة للمجتمع الدولى أو العالمى ؟ والابطال الدوليين هل لدينا منهم أحد ؟ وهل يمكن البدء فى البحث عن هؤلاء الاشخاص ؟

ان مثل هذا القول الذى يبحث فيه عالم تربوى امريكى يجعلنا نؤمن **باعجاز القرآن** وما دعا اليه من عالمية الدعوة منذ أربعة عشر قرنا ، اذ أن احساس الانسان بحاجته الى ثقافة عالمية وفكرة عالمية تجمع بين البشر جميعا لم تتضح الا فى القرن العشرين ، ولم يشعر العالم بأهميتها وقيمتها فى اقرار السلام والأمن العالمى الا بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرنا •

فاذا كان العالم الغربى يبحث عن رمز عالمى يشعر العالم نحوه بالولاء فأولى بهذا الولاء هو **الله** سبحانه وتعالى واولى بالبطولة هو محمد صلى الله عليه وسلم والمنهج العالمى الذى يبحث عنه الامريكان هو منهج القرآن ،فهو **أول كتاب سماوى ينزل للعالم أجمع ليوحد بينهم فى الفكر والعقيدة وأول** كتاب يدعو إلى الولاء لله وحده • والرسول الكريم هو أول نبى يحمل رسالة سماوية ويأتى بنظرية تربوية يتحقق له تطبيقها عن طريق القرآن ، والسلطان بعد ان كون أول حكومة اسلامية فى المدينة المنورة ، كانت نواة للمجتمع الاسلامى الكبير فيما بعد •